الرهيب في قبضة السيد الرهيب يعرف طريقه جيداً إلى اجسادهم» (ص١١٥). ومن هذه القرية يتسلل الفدائيون إلى الارض المحتلة. وعلى اطرافها (غابة) حانية أوجدها الكاتب تلبية لمتطلبات العمل النضالي، حيث يحتمي فيها الفرسان الملثمون بعد تنفيذ عملياتهم. وثمة في عمق القرية مخيم للاجئين أهله غائبون عن الاحداث لانهم ما زالوا نياماً. وهناك نموذج البطل المقاوم... «الفارس ذي الجبين الواسع والثغر المبتسم» (ص١٤٠) الذي يشق طريقه إلى الوطن. أما «مدام حرب» التي حضرت في البداية كاحجية رغم غيابها، والتي تدير في المدينة بيتاً للدعارة، فاننا نفاجأ بأن لها في القرية نفسها قصراً ملوّناً يقبع على احدى الهضبات، وان «السيد الرهيب» الذي يمارس القمع ضد الفلاحين هو وكيل هذه السيدة الرهيبة!

واذ تقع الحرب (حزيران – يونيو ١٩٦٧)، التي ادعت الرواية استشرافها كموت – ولادة، فان أوهام الكاتب تخلقها على هيئة حروب الكواكب والنجوم: «واندهش عصمت عندما رأى جنود العدو، وهم يقطعون الاسلاك الشائكة إلى ظهورهم، واندهش مرة اخرى، وهو يتابع ألبستهم البراقة وأسلحتهم البراقة وخطواتهم البراقة والدقيقة، فكأنهم آتون من كوكب آخر! وما لبثت دبابة براقة ان تبعتهم، وهي تطلق الاشعة المهددة في كل الاتجاهات...» (ص٢١٥). فاين حدثت مثل هذه الحرب الاشعاعية البراقة؟ الا اذا كان استشراف الكاتب لا يخضع لقوانين الزمان والمكان المحدودة، فيرسم لنا بلا رهبة صورة لحرب ستقع في القرون القادمة... طالما أن (فنه) يحمل قدرة النبوءة.

□ □ □

ان الأسئلة الأساسية التي تستثيرها قراءة هذه الروايات الست لافنان القاسم هي: هل تشفع القضية الكبيرة، الصحيحة والعادلة، لكل الكلمات التي تتسلق أبراجها، فتمنحها صكوك البراءة؟ وهل يكفي «الاخلاص» المبدئي و«العشق» الكامن اللامحدود للقضية، وحدهما، لصنع أدب يخدم هذه القضية؟ وهل يحقق الأدب الطليعي و«التقدمي» ذاته ويكرس تقدميته بقدرته على أن يحشد في داخله صور النضالات العمالية، والقمع الطبقي، والعشق الاممي، أو بقدرته على طرح الشعارات بنبرة عالية، إلى جانب تدبيجه لصفحات تعليمية طويلة تشرح مبادىء الاشتراكية العلمية؟

من المؤكد أن قراءة روايات أفنان القاسم لا تنفرد بطرح هذه الأسئلة على صعيد الرواية الفلسطينية، فثمة أعمال اخرى تظل قراءتها تستثير الأسئلة ذاتها. لكن أفنان القاسم يظل متميزاً باصراره التراكمي الذي يجعل من نتاجه «نموذجاً» متكرراً يقتضي الدرس. ومن هنا جاء حرص هذه الدراسة على محاولة الاجابة على تلك الأسئلة من خلاله.

ان قول «غابرييل ماركيز» الذي يشير فيه إلى اعتقاده بان كتابة الأدب السيء تساهم في عرقلة مسيرة العملية التاريخية نحو الاشتراكية، هو صحيح إلى أبعد الحدود.